

شَبلي الشَميل

١٨٥٠ - ١٩١٧

الكتابة عن مسيرة شبلي الشميل في جوانبها المختلفة هي مهمة صعبة وشاقة. فهو عالم قائم بذاته، عالم تتعدد فيه مصادر المعرفة والأفكار وتتعدد فيه المواقف والآراء والسجلات حول القضايا التي شغلت مصر ولبنان والعالم العربي والعالم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والرابع الأول من القرن العشرين. فشبلي الشميل طبيب ومفكر علماني حتى العظم اشتراكى الاتجاه على طريقته. وهو أديب وشاعر وكاتب في كل ما كانت تحفل به تلك الحقبة من القضايا في كل الاتجاهات. وهو صاحب سجلات جريئة مع الذين خصموه في أفكاره وفي مواقفه. لكن المهم في سماته كمفكر هو أنه ربط في أفكاره وفي مواقفه من قضايا الحياة ومن قضايا بلاده بين أفكار النهضة في القرن التاسع عشر والأفكار التي كانت تنتجها تحولات القرن العشرين منذ بداياتها. فمن أين نبدأ في الحديث عن هذا المفكر الكبير؟

لنبدأ أولاً في قراءة سيرة حياته منذ بداياتها. فقد ولد شبلي في بلدة كفرشما في أقاصي الضاحية الجنوبية للعاصمة بيروت. ويعود تاريخ ميلاده إلى عام ١٨٥٠. تلقى دروسه الابتدائية والمتوسطة في مدارس البلدة. انتقل بعدها إلى الجامعة الأميركية وتخصص في علوم الطب. وكانت رسالته في موضوع تأثر الإنسان والحيوان بالمناخ والطبيعة والبيئة. تخرج في عام ١٨٧١ فأرسله والده إلى فرنسا ليعمق دراساته في الطب. وبعد عامين انتقل إلى اسطنبول واجتاز الامتحان في الطب بنجاح كبير. ثم عاد إلى لبنان. لكن إقامته فيه لم تطل. إذ توجه في عام ١٨٧٥ إلى مصر وأقام في مدينة طنطا يمارس الطب ويهيئ نفسه لنشر أفكار المادية. وكان شعاره "الحقيقة أن نُقال لا أن تُعلم". وبعد فترة من إقامته في طنطا انتقل إلى القاهرة التي صارت مقر إقامته الدائمة حتى آخر حياته.

كان الهم الأساسي الذي شغل الشميل منذ مطالع شبابه مرتكزاً على العلم والمعرفة. فانكب على البحث في ميادينهما. وسرعان ما قادته أبحاثه والمعارف التي اكتشفها واكتسبها إلى أن يصبح إلى جانب مهنته في الطب التي لم تشغله كثيراً، عالماً في شؤون الحياة وعلمانياً شجاعاً في أفكاره وفي

مواقفه، مقاتلاً بكل طاقاته دفاعاً عن أفكاره وعن مواقفه في سجالات مع خصومه رافقته على امتداد حياته.

كان من أوائل ما اكتشفه الشميل في أبحاثه وفي متابعاته لما كان قد صدر من أبحاث في العلوم الطبيعية وفي شتى المعارف الإنسانية كتاب داروين المعروف "أصل الأنواع". فاستهوت الأفكار الجديدة العظيمة التي تضمنها الكتاب. وسرعان ما صار من المدافعين عن تلك الأفكار. وسارع إلى ترجمة ونشر الكتاب الذي كان قد ضم مقالات "تختر" الست التي شرح فيها نظرية داروين عن النشوء والارتقاء. وكان ذلك الكتاب البداية الحقيقية في المعارك التي خاضها الشميل في الدفاع عن النشوء والارتقاء التي صارت نظريته هو، وأشهر باسمها ماديته من دون أن يتناول صراحة على الأديان. بل هو خاض معركته في الأساس ضد رجال الدين الذين اتخذوا من الدين وسيلة لخداع الناس وللدفاع عن مصالحهم التي لا صلة لها بقيم الدين.

ويفسر على طريقته موضوعه داروين البقاء للأصلح فيقول: "كما أن الجسد يكون صالحاً للبقاء عندما تعمل كل أجزائه بتعاون، هكذا يقوم المجتمع بعمله على أحسن وجه عندما تعمل أجزائه معاً في سبيل خير الجميع. فالتعاون ناموس المجتمع الأعلى. وعن هذا ينتج أن القوانين والمؤسسات يجب ألا تعتبر معصومة وغير قابلة للتغيير، إذ ما هي سوى تدابير في حقل الحياة الاجتماعية، تقاس قيمتها بمقدار ما تخدم الخير العام وهي تتغير بتغير شروطه. لكن على هذا التغيير أن يتم تدريجاً. نعم، هناك حالات لا بد فيها من الثورة، حين لا يكون من علاج سواها لإخراج السم من الجسد، لكن الإصلاحات التي تتجح إنما هي، على العموم، تلك التي تنبثق عن تغير في الإرادة العامة وتستهدف الخير العام. على أنه لا يمكن الاتفاق على ما هو الخير العام إذا لم تتوافر الحرية، وبالأخص حرية الفكر. ففي الحكم الاستبدادي يسيطر عضو من أعضاء المجتمع على الآخرين بالقوة ويضع مصالحه

فوق مصالحهم. كذلك لا تكون إرادة عامة بدون وحدة اجتماعية تقوم عليها، مما يقتضي فصل الدين عن الحياة السياسية. إذ أن الدين هو عنصر تفرقة، لا بحد ذاته، بل لأن رؤساء الدين يبذرون الشقاق بين الناس، مما يبقي المجتمعات ضعيفة".

لقد قرأت الكثير من المراجع ما يتصل منها بكتابات الشميل ذاته وما يعود لقارئيه من القدامى والمحدثين. وقد لفتني في بداية قراءاتي عن الشميل مقال لأحد رواد الفكر النهضوي اسماعيل مظهر بعنوان "شبلي الشميل وفكره المتطور في الشرق العربي". في هذا المقال يعرض مظهر لأفكار الشميل الأساسية في النشوء والارتقاء ويدافع عنه وعن حقه في عرض أفكاره ويعرض بعض فقرات من كتابات الشميل التي يشير انتقاؤها إلى إعجاب مظهر بها وبكتابتها. وسأقدمها للقارئ كما وردت في مقال مظهر. يبدأ مظهر مقاله باستشهاد من أقوال الشميل: "كن شديد التسامح مع من يخالفك في رأيك، فإن لم يكن رأيه كل الصواب فلا تكن أنت كل الخطأ بنسبتك. وأقل ما في إطلاق حرية الفكر والقول تربية الطبع على الشجاعة والصدق، وبئس الناس إذا قسروا على الجبن والكذب".

يفتتح مظهر مقاله بعرض منه لتاريخ فكره المتطور، فيقول: " فكرة التطور قديمة، ردها بعض الباحثين إلى العصر الإغريقي، وألف الأستاذ أزيورن ذلك كتاباً عنوانه "من الإغريق إلى دروين"، أظهر فيه تسلسل هذا المذهب العظيم من أوائل عصر الحضارة الغربية إلى القرن التاسع عشر بعد الميلاد. وللعرب أقوال فيه أثبتتها في مقدمة الطبعة الثانية من ترجمة كتاب "أصل الأنواع" منها ما نقلته عن ابن مسكويه، ومنها ما نقلته عن أخوان الصفا. وفي كتب العرب منشورات تدل على نزعات تطورية وعلى ما اتجه فيه فكر أفراد أفاذا منهم نحو القول بفكرة النشوء الكوني، ثم النشوء العضوي أو الأحيائي. غير أن ما مضى فيه الأغارقة والعرب من القول بالتطور والنشوء قد اكتنفته كل ما يكتنف رواد الفكر من

غموض وإبهام وقلق. ثم نسيت هذه الفكرة على غموضها في فترة الركود التي انتابت الفكر في خلال عصور الظلام والعصور الوسطى، ثم أخذ شعاعها يلمع وضاحاً في العصر الحديث".

وينتهي مظهر مقاله بعد أن يغوص في الموضوع طويلاً بالجملة التالية: "والمعروف أن الشميل كان حين أصدر كتابه "فلسفة النشوء والارتقاء" قد توجه إلى القراء بكلام بسيط يدعوهم فيه إلى قراءته بعقل مفتوح". يقول في هذا الصدد على غلاف الكتاب: "طالع هذا الكتاب بكل تمعن ولا تطالعه إلا بعد أن تطلق نفسك من أسر الأغراض لألا تغم عليك نفسك واقف تطل على العالم من شرفة عقلك تتلمس الحقيقة من وراء ستارها". ثم يقول في مكان آخر: "إليك أكتب أيها القارئ العاقل المتأمل ولا أطلب منك علماً واسعاً وفلسفة بديعة وحكمة بليغة، بل أطلب منك عقلاً حلت قيوده وتفتحت منافذه وأقام التفكير مقام الاعتقاد والبحث مقام المقرّر يقدر مستنتجات العلم قدرها ولا يبخر مستنبطات العقل حقها".

والملفت للنظر أن العاصفة التي أثارها كتابات ومواقف الشميل حول نظرية النشوء والارتقاء قد جعلت جمال الدين الأفغاني يدلي برأيه فيقول: "ولا يسعني أن أمرّ على ذكر حكيم شرقي انخرط مع من ذكرت من العلماء ممن أيدوا مذهب داروين وأخذوا بناصره وهجموا على مألوف الشرقيين بقواعد ذلك المذهب من حيث الجهر بمعتقد يرى الإنسان أنه اعتقاد صحيح ولو خالف الجمهور.. فالدكتور الشميل له في نشر مذهب داروين وتحمله أعباء المكفرين له عن غير علم وتحقيق ما يعدّ للشميل فضلاً... لكنني لا أرى الدكتور الشميل قد تخلّص في جرائته الأدبية وبعض رسوخه في الفلسفة من وصمة التقليد الأعمى لعلماء الغرب. وبمعنى أوضح إنه أراد أن ينتصر لداروين وأن ينشر مذهبه، رغم أهل الأديان، وفي ذات الوقت عارض أستاذه صاحب المذهب المنقاد له.. وفيما عدا ذلك فإنني أقدر للشميل قدره في دقة بحثه وتحقيقه وجرائته على بثّ ما يعتقد من الحكمة وعدم تهيبه من سخط المجموع لما يجمله من حقائق العلم".

وإنني لأشهد بأن أكثر المراجع عرضاً دقيقاً لأفكار شبلي الشميل، بالإضافة طبعاً إلى كتاباته وكتبه التي صدرت في المجموعة الكاملة، ما كتبه بإسهاب الدكتور رفعت السعيد في أكثر من دراسة عن الشميل. فهو قد غاص عميقاً في فكر الشميل وفي سيرته وفي مجمل ما ارتبط بحياته العاصفة من معارك حول أفكاره.

وما هو معروف عن الشميل هو نقده للرأسمالية والرأسماليين الذين يعتبرهم "بعوض المجتمع". ويتهم الحكومات القائمة بأن همها هو أن تضمن للرأسماليين أسباب السلب والنهب "يصادرون ويرابون ويجمعون المال بالاحتتيال والاستئثار بمنافع الأعمال التي لا ينال القائمون بها إلا ما يتبلغون به من العيش"، إلى أن يقول "رأيت العامل يشتغل في الحر والعرق يتصبب من بدنه كالمطر ليطعم سواه مما جناه. ولا يناله من ذلك إلا نذر يسير لا يفي بحاجته العادية وأولاده الجياع".

لكن اشتراكية الشميل تظل أكثر ميلاً إلى الطوباوية. إذ يبدو أنه لم يتعمق في قراءة الأفكار التي كانت قد انتشرت منذ أواسط القرن التاسع عشر في كتابات ماركس وإنجلز وكبار مفكري الاشتراكية العلمية. فهو يكتفي بنقد الرأسمالية ونقد المكونات القائمة، والتذكير بالظلم الاجتماعي، ويذهب عميقاً في تحديد الطريق إلى الاشتراكية التي يدعو لها بحماس إلى الحد الذي يجعلها الطريق الحتمي إلى المستقبل الأفضل لبلداننا وللعالم. ويعترف قائلاً: "أراني ركبت متن الخيال في قولي أنها تريد أن تمهد له سبيل السعادة على هذه الأرض، والأولى أن أقول إنها تريد أن تقلل من ويلاتته فتضمن له حاجاته وتصون حقوقه بعد أن تفرض عليه واجباته وترفعه من تحت موطئ الأقدام إلى مقامه كإنسان وتعلمه أنه عضو في الاجتماع لا يجوز أن يبقى عالة عليه غير نافع، وأنه عامل فيه لا يجوز أن يبقى غير منتفع، وأن تبادل المنفعة ينبغي أن يكون على قيد العمل. هذا هو مبدأ الاشتراكية. ومن ظنّ غير ذلك فهو واهم. وهذا هو المبدأ الذي أدافع عنه. فهل فيه مأخذ على العاقل أو مظنة بي لجاهل؟".

لكن الشميل لم يكتف بالنقد للحكام، بل هو يحاول أن يقدم، إلى جانب كل ما كتب في العلوم وفي الفلسفة وفي النظرية، آراء جريئة في قضايا سياسية راهنة. وأكتفي بإيراد نص له يهاجم فيه الحركة الصهيونية. وهو نص إلى جانب نصوص يتحدث فيها عن طموحه إلى جعل البلدان العربية ترتقي وتتقدم في شتى ميادين الحياة. لكن لهذا النص عن الصهيونية أهميته للدلالة على أن ما كان ليشغل الشميل في معاركه الفكرية لم يمنعه من الاهتمام بالقضايا التي كانت تواجه بلاده من داخلها ومن خارجها. يقول الشميل في هذا النص: "حجتنا على الصهيونيين اليوم إنهم دخلاء غريباء يعتدون علينا ويسلبوننا أرضاً هي ملكنا. وقد سفكنا دماء زكية لأجلها، حجة واهية كبكاء الأطفال. ولو جاز لنا مثل هذا الاحتجاج لجاز لهم أن يحاجونا بمثل حجتنا ويقولوا إن الأرض أرض آبائنا وقد سلبت منا بالسيف ونحن نريد أن نستردها ولكن... بغير السيف نستردها بأعمال تبتهج لها الأرض نفسها وتحمدنا عليها الأجيال قاطبة، فنحوّل أطلالها مدائن وأرضها السبخة حدائق. على أنهم هم لا يصرحون بأنهم يريدون أن يقصونا وإن أدى عملهم فينا إلى هذه النتيجة إذا كنا لا نتذرع بقوة تضاهي قوتهم ونكون وإياهم أكفاء رحمة بالأرض. فإن لم نفعل فما ذنبهم حينئذ وبأي حق ندفعهم. بل كيف يجوز لنا أن نشكو منهم ونحن نعلم أن الشكوى وحدها لا تدفعهم عنا ولا تجدينا غير المداواة وتسجيل الخرق علينا أم نقوم عليهم بالقوة الوحشية ونجني على العمران وعلى الأرض جناية أخرى ونكون منهم كما في المثل: "عاطلين معطلين". وهل يتيسر ذلك لنا اليوم؟ فليس أمامنا حفظاً لكرامتنا وضناً بالأرض إلا أن نناهضهم مناهضة رجال العقل لا رجال الجهل ونتبارى معهم في الأعمال العمرانية ونأخذ عنهم ونحمدهم على أنهم كانوا لنا مدرسة تعلمنا كيف نعمر أرضنا. فإذا شكونا الفقر وشكوانا في محلها، فما ذنب الأرض المسكينة حتى نحرمها اجتهاد المجتهدين ونحبس عنا وعن العالم خيراتها أنفسنا الذين أفقرناها وأفقرنا أنفسنا معها فلنجد ونكد نظيرهم ما دام الناموس العمراني العام يقضي بأن الأرض ميراث المجتهد، وإلا فعويلنا اليوم ينفعنا كما نفعتم مراسي أرميا في الماضي. فاستعملوا الأرض أيها الناس وعمرّوها

والأرض الباقية خير من الإنسان الزائل. فعلى صلاحها يتوقف صلاح الأجيال في الحال والاستقبال والسلام على من اتبع الهدى".

غير أن من روائع مواقفه إعجابه بكتاب عبد الرحمن الكواكبي "طبائع الاستبداد" الذي يعتبره قمة في تحديد الاستبداد وفي مصادره وفي أشكاله. وينتهي مقاله بالتأكيد على ما جاء في كلام الكواكبي: "إن الاستبداد لا يقاوم بالشدة إنما يقاوم بالحكمة والتدرج. والوسيلة الوحيدة لقطع دابره هو ترقى الأمة في الإدراك والإحساس وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم والتحميس. ثم قال إنه يجب مقاومة الاستبداد تهيئة ما يستبدل به. ولا بد من تعيين المطلب تعييناً واضحاً موافقاً لرأي الأكثرية التي هي فوق الثلاثة أرباع عدداً أو قوة بأس وإلا فلا يتم الأمر. ولذلك يجب تعيين الغاية بصراحة وإخلاص وإشهارها بين الناس والسعي في إقناعهم واستحصال رضاهم بهم. ويلى ذلك شرح مسهب. والكتاب كله على هذا النسق والغاية منه ظاهرة لا تخفى على أحد من قارئيه".

لكنني وأنا أنهى هذا العرض المكثف لفكر شبلي الشميل ولسيرته السياسية فإنني أنصح القارئ بأن يقرأ هذا المفكر النهضوي التنويري في كتبه وفي كتاباته، وأنصحه إذا ما تعذر عليه ذلك، أن يقرأ ما كتبه عنه الدكتور رفعت السعيد في عدد من الأبحاث التي تناولت جميع جوانب سيرته الفكرية والسياسية.